الباب الثالث

في ورعه وزهده وصبره وحلمه وتواضعه وفقره مع النفقة الكثيرة الخارجة عن الحصر :

والكلام فيه في خمسة فصول :

الفصل الأول

في ورعه : فأقول :

كان ورعه في النهاية القصوى متجنبا للحرمات والمشتبهات في الأفعال والأقوال والمأكل والمشرب والملبس إلى غير ذلك .

وكان ﷺ لا يكتسي من غزل زوجته مع خيرها وإنما يكتسي من غزل أخته لعلمه بحالها .

وكان يقنع في حاله باليسير فكان يأكل غالبا فضلة الأهل والصغار الذي يعاف الجميع من أكله أو يلحس أوانيهم ويكتفي بذلك ويأكل في مثل الخس الورق الذي يرمونه .

وكان لباسه الثوب الخام الغليظ والملحم وعمامته دون العشرة أذرع كذلك وأرخى منها عدبة في آخر عمره لما قرئ عليه من كلام سيدي الشيخ الصالح العارف بالله أبي عبد الله ابن الحاج أن السنة فعلها ففعلها وأمر أصحابه بها .

وكان الغالب إذا توسخ ما عليه لا يكون له ما يبدله به وكانت أخته إذا توسخت ثيابه تنزع ثيابه لتغسلها وإلا فهو ما كان يفكر في ذلك ولأجل أن لباسه على هذا سخره الجنادرة مرة وحبس وجلس سيدي الشيخ على ما ذكر

يتلو القرآن فلم يلبث إلا قليلًا [١] وإذا بقوم جاؤوا وأخرجوا كل من في السجن وكذلك تثاقل عليه مرة بعض الناس وأخذ منديله احتقارا به حتى جاء سيدي الشيخ لمن خلصه له .

وذكر لي بعض أهل الخير أنه تعلق به شخص مرة وقال له : أنت سرقت منديلي!

فقال له سيدي الشيخ : ما أخذت لك شيئا ؛ فهو يحاوره وإذا ببعض معارف الشيخ رآه فعرف به فاستغفر ذلك الشخص للشيخ وقبل يديه .

ولم يسكن [١٢/ أ] إلا في بيت صغير ، وكان بيته بالمدرسة يحتاج إلى العمارة ولا يعمره ، ويأتوا إليه أهل الوقف ليعمروه فيقول هذا كاف ولم يره أحد يكنس بيته أو ينفضه وكان يلبس في الشتاء بين ثيابه فروة لا تساوي أربعة دراهم أو بشتا كذلك ، وبالجملة فكان يرى الدنيا كالميتة لا يتناول منها إلا بحسب الضرورة .

وكان فرشه في بيته إما فروة وإما فرش مقطع وغطاؤه هو وأهلِه عباءةٌ تساوي نحو العشرين درهما .

وكان يحب مساواة الناس إذا جاعوا أو عطشوا وقد حدثني الشيخ الصالح عبد الله الصنهاجي [٢] وهو من جملة أصحاب سيدي الشيخ قال : سافرت إلى الحجاز الشريف ، وكان الشيخ قد سافر تلك السنة ؛ قال : فجاء الناس إلى

---

(١) في النسخة الأخرى «يسيرا» .

(٢) في الدرر ج٣ ، ص٤٧ : عبد الله بن عبد الكافي بن عبد الرحمن الصنهاجي ، المالكي ، زكي الدين ، عرف بالمأمون وتوفي بالقاهرة سنة ٧٣٥هـ . فلعله هو .

السويس فلم يجدوا ماء ، ومات ناس من العطش ، ورجع ناس بسبب ذلك ؛ قال : وحصل لي عطش ثم حصلت لي شربة ؛ قال : فرأيت سيدي الشيخ ففرحت ؛ فقال لي : ما عليك ؛ وذكر لي أنه منذ خرج من [١] القاهرة لم يشرب شيئا[٢] وخرج ماشيا ، قال : وتهت عن رفقتي فسايرني الشيخ قليلًا ثم قال : انظر هل في هؤلاء رفقتك ؟ فذهبت فوجدتهم ولم أجد الشيخ . أو كما قال .

وحكى الفقيه الأجل محمد[٣] زكي الدين بن عبد المحسن وهو من جملة أصحاب سيدي الشيخ قال : حدثني من أثق به أن الشيخ مرة قالت له زوجته على أقاربها ليقوم عليهم فلم يفعل فخرجت فجاء الشيخ تلك الليلة ولم يجد شيئا وهو يصبح صائما فوجد في جرة بسلة [٤] فأخذ منها شيئا يسيرا وأكله وأصبح صائما ، ولعله إنما أخذ ذلك حتى يسلم من الخلاف الذي للناس في الوصال ، قال : ومرة وجد نارنجة تخمجت فأكلها واقتنع بها تلك الليلة وأشار إلى أنه قصد خبر رزق الله تعالى رحمة .

وكذلك حكى لي غير واحد أن سيدي الشيخ مرة عمل للفقراء طبيخ لبن فلما جاؤوا به انكب منه شيء فترك الشيخ ~ الجماعة يأكلون من الجفن وأكل ما انكب على البلاط .

ومن ذلك ما حدثني به بعض الثقات أن بعض الطلبة نسي زبدية طعام ثلاثة أيام فحصل للطعام بعض تغير فقال ذلك الطالب أوديها للتكاررة[٥]

---

(١) في النسخة الأخرى (إلى) .

(٢) في النسخة الأخرى (ماء) .

(٣) في النسخة الأخرى (ابن) ولم أهتد إليه .

(٤) في النسخة الأخرى (بسيلة) .

(٥) تُكْرُورُ ، بالضمِّ : جِيلٌ من السودان وينسب إليهم فيقال تكروري والجمع تكاررة . تاج العروس :=

لعلهم يأكلونها فسمع سيدي الشيخ فقال : أنا آكلها .

ومـــن ذلـــك ما حدثني به العدل المرتضى عبد الله جمال الدين ابن أخت [١] زوجته ، قال : وجد الشيخ على صفة في البيت قراقيش ونخالة فقال لأختي : ما تفعلون بهذا ؟

فقالت : نطعمه للدجاج .

فقال : الدجاج ؟! كلوهم وهذا يؤكل ، ولا تنخلوا الدقيق ، وإن كان ذلك ما يطيب لكم اعملوا لي أنتم [١٢/ ب] النخالة فإن الناس في هذا الوقت في غلاء .

*****

= ١٠/ ٢٩٠ ، باب الراء فصل التاء .

(١) في النسخة الأخرى (أخو)

الفصل الثاني
في زهده

أما زهده فاعلم أنه يستدل على الزهد في الدنيا بالزهد في الرياسة ويستدل على الزهد في الرئاسة في الزهد بالاجتماع بأهلها ، وكان ﷺ زاهدًا في الجميع وطلب للمناصب والمدارس والجوامك [١] فامتنع وسكن في آخر عمره بتربة الأمير منكلي بغا [٢] الفخري لأجل أن أخته وصهره كانا بها فكان الأمير ـ على ما أخبرني به الجماعة ـ يريد الاجتماع به ويحرص على ذلك الشهر وأكثر فلا يستطيع مع إقامة الأمير أيضا بالتربة تلك المدة .

وكذلك كانت أبناء الدنيا من الأمراء وغيرهم يودون الاجتماع به ليتبركوا به فلا يتيسر لهم وذلك ببركة الشيخ وخاطره وإلا هو كما تقدم غير محتجب .

وقبل مرة مكانا فيه معلوم جيد فطلع له الشيخ شرف الزواوي [٣] ليهنيه به فقال : أنا ما قبلته إلا لأجلك ؛ ونزل له عنه .

وقبل أيضا مكانا ليوليه بعض أصحابه وذلك ما حدثني به القاضي العالم

---

(١) الجوامك جمع جامكية وهي لفظ فارسي معرب معناه رواتب أصحاب الوظائف من الأوقاف ، معجم لغة الفقهاء ، لرواس قلعجي ، ص :١٥٨ .

(٢) منكلي بغا بن عبد الله الفخري رقاه الناصر وأمره بدمشق وناب في طرابلس وعظمت منزلته في دولة الناصر حسن وصار من أكبر أمراء المشورة ثم اعتقل في دولة الصالح سنة ٧٥٢هـ ، ومات بعد ذلك في ٧٥٣هـ ، وكان حسن الشكل فيه خير ومروءة وعصبية . انتهى بتصرف من الدرر الكامنة ، ج٦ ، ص : ١٣٠ ، ١٣١ .

(٣) تقدمت ترجمته .

الفاضل مفتي المسلمين تقي الدين ابن شاس[١] قال : طلعت لـه بسبب مكان ليقبله فامتنع وقال لي : لا آخذ على تعليم العلم شيئًا .

قال فقلت له : اقبله لتعطيه للمليجي[٢] ـ وكان هذا المليجي من أصحاب سيدي الشيخ ـ ففعل .

وكان امتناعه ﷺ بتلطف ، فقد أخبرني القاضي العالم الفاضل تاج الدين المناوي[٣] صهر سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى عز الدين ابن جماعة[٤] قاضي القضاة بالديار المصرية أن سيدي الشيخ دخل إليه يومًا في حاجة لبعض الفقراء فقضاها ثم أرسل للشيخ وقال : قصدي أن أرتب لكم شيئا من وقف بعض المدارس لتستعينوا به .

فقال للقائل : جزاه الله خيرًا ، ولكن لي في هذا الوقت شيء قد جعلت منه شيئا لنفسي وشيئا لأهلي ، فحصل لي الرضا وأخشى ألَّا يحصل الرضا مع هذه الزيادة .

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن شاس ، تقي الدين ، المصري ، قاضي القضاة المالكي الفقيه ، المتوفى سنة ٧٦٠هـ ، قال ابن تغري بردي : كان إمامًا بارعًا في مذهبه أفتى ودرس وناب في الحكم ثم استقل بالقضاء ، وكان مشكور السيرة من علم وفضل . انتهى من النجوم الزاهرة ، ج١٠ ، ص٣٣٢ .

(٢) يغلب على الظن أنه نور الدين علي المليجي الآتي ذكره وقد نقل عنه خليل مصرحًا باسمه ولم أقف على ترجمة له في ما بين يدي من مصادر ومَليج إحدى قرى محافظة المنوفية .

(٣) محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن عبد الرحمن المناوي تاج الدين القاضي الفقيه الشافعي كان ينوب عن قاضي القضاة عز الدين ابن جماعة في الحكم ، قال التاج السبكي : كان عارفًا بالمحاكمات فقيها ناهضا .انتهى من طبقات السبكي ، ج٩ ، ص١٢٧ .

(٤) أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة ، قاضي القضاة ، الشافعي ، الشامي ثم المصري ، المتوفى سنة ٧٦٧هـ ، عالم فاضل وفقيه من بين نعمة وعلم وله عز وجاه عند الأمراء طلب أن يعفى من القضاء أكثر من مرة وكلم في العودة فأبى وجاور بمكة وبها توفي . بتصرف واختصار من طبقات السبكي ، ج١٠ ،ص٨٠ .

وكان هذا لمَّا كان له في المدارس جامكية وكانت نحو درهم في كل يوم ، وآخر عمره ترك ذلك ، ولم يبق له معلوم أصلًا ، مع كونه كان ينفق النفقة التي يعجز الملوك عنها على ما سيأتي إن شاء الله تعالى .

ومن زهده أنه خرج من الدنيا ولا وضع حجرًا على حجر ولا اتخذ سببا ولا ولَّى وراءه درهما ولا كتابا وترك حلابا عتيقا[١] وابن الحاجب في الفقه[٢] ، والتنقيح للقرافي[٣] ، والملخِّص للقابسي[٤] كل ذلك قد وقفه وخلف منديلا شمطا كان يتزر به ، وعباءة وقبع لبد ، وفروة لا تساوي أربعة دراهم وأما قميصه وعمامته فكفن فيهما .

ولم يصنف ورقة ولا كتب على الفتوى على الجلوس في مجالس الفقهاء ويجلس بين يدي بعض المدرسين وهو بشهادة الناس أفضل ؛ هذا مع اعتراف

---

(١) الحلاب بكسر الحاء إناء يحلب فيه اللبن .

(٢) أي الجامع بين الأمهات لابن الحاجب وقد تقدم التعريف به .

(٣) أي (تنقيح الفصول في علم الأصول) وهو مقدمة لكتاب الذخيرة لشهاب الدين أبي العباس أحمد ابن إدريس القرافي ، الصنهاجي المصري ، الفقيه ، المتوفى سنة ٦٨٤هـ ، قال في أوله : واعتمدت في هذه المقدمة على أخذ جملة كتاب الإفادة للقاضي عبد الوهاب وهو مجلدان في أصول الفقه وجملة الإشارة للباجي وكلام ابن القصار في أول تعليقه في الخلاف وكتاب المحصول للإمام فخر الدين بحيث أني لم أترك من هذه الكتب الأربعة إلا المآخذ والتقسيم والشيء اليسير من مسائل الأصول مما لا يكاد الفقيه يحتاجه مع أني زدت مباحث وقواعد وتلخيصات ليست في المحصول ولا في سائر الكتب الثلاثة ولخصت جميع ذلك في مائة فصل وفصلين في عشرين بابا وسميتها تنقيح الفصول في علم الأصول لمن أراد أن يكتبها وحدها خارجة عن هذا الكتاب . انتهى من الذخيرة ج١ ، ص٥٥ ط دار الغرب بتحقيق محمد حجي .

(٤) الملخص بكسر الخاء لأبي الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القيرواني ، الفقيه الضرير المتوفى سنة ٤٠٣هـ ، جمع فيه ما اتصل من حديث مالك في الموطأ برواية ابن القاسم .

الجميع بفضله وعلمه ورجوع القضاة والحكام لقوله وعدم قطع أمر دونه .

ورأيته كتب مرة على فتوى لكن على طريق المفتين ولم يكتب إلا بعد أن قيل له إن هذا لا يفعل إلا بخطك وكان في ذلك مصلحة للفقراء ؛ وذلك أنه كان فيها أن جنديا قصد إخراج ثلاثمائة درهم أو أكثر فأيهما أفضل له أن يعمل بها طعاما ويدعو له الجند أو الأصحاب ؟ أو يشتري به خبزًا و يفرقه ؟وكان الناس في غلاء فكتب : الذي يظهر للمملوك الثاني .

بعد أن عرف أنه لا يشتري الخبز إلا بالكتابة ؛ فخرجت ونظرت ما كتبه فوجدته كما ذكرت ؛ فقال لي الشيخ الصالح العارف محمد المكناسي[1] وكان من أصحاب سيدي الشيخ الكبار وكان الشيخ يرى له ويحبه : ما كتب الشيخ ؟

قلت : كذا . قال : يعني مملوك الله .

وأما مباعدته لأبناء الدنيا فأمر معروف عن كل من عرفه ، وكان ينكمش عندما يأتي له أحد منهم ويقول : ينبغي للإنسان أن يفر من أبناء الدنيا كما يفر من الأسد ؛ أو كلاما هذا معناه .

وكان يبش في وجه الفقير ويؤنسه وقال له بعضهم : يا سيدي ذكرتك في مجلس ابن البابا[2] ـ وكان من الأمراء الأخيار ولعله كان أكبر أمير بمصر ومن أكبرهم فقال له : لا جزاك الله عني خيرا .

---

(١) لم أهتد إليه .

(٢) جنكلي بن محمد بن البابا بن جنكلي بن خليل بن عبد الله العجلي بدر الدين ، أحد أفاضل وقته ومن الأمراء المقربين وكان كبير الدولة في آخر عمره زوج الناصر محمد بن قلاوون ولده من ابنته توفي سنة ٧٤٦هـ . ترجمته في الدرر ج٢ ، ص٨٩ .

وحكى لي الشيخ العالم الفاضل موسى شرف الدين المقرئ [١] ـ نفع الله به وبعلومه ـ أن الملك [٢] لما بنى جامعه الذي بالحسينية طلب أن يكون سيدي الشيخ مدرسا به وقال له : إن جئتني بالشيخ حليتك حلاوة مثلي لمثلك ، وكان الملك أميرا كبيرًا واستنابه السلطان ، قال : فقلت في نفسي هذا أمير كبير وأنا فقير ولعله أن يعطيني ألفين أو ثلاثة وأقل ما يعطيني ألفًا ؛ فجئت لسيدي الشيخ وكانت عادته إكرامي والإقبال علي ففعل كعادته ثم قلت : الحاج الملك يسلم عليك فأعرض عني وكأنه ما عرفني .

قال : وقلت له : إنه قد بنى هذا الجامع ، واجتهد فيه وقصد أن تشغلوا فيه بالعلم الشريف .

فقال لي : يا شيخ موسى أنت رجل غر ـ أي جاهل ـ هذا شيء ما فعلته أول عمري أفعله في آخره ؟!

فقلت له : يا سيدي تحيون هذا المذهب هناك .

فقال : إن كان المذهب يحيى بي فقد مات .

قال : فخرجت من عنده وكأني صفعت ـ أو كما قال .

وسمعت من جماعة الأمير بكتمر الساقي ـ وكان محبوبًا عند السلطان الملك

---

(١) لم أهتد إليه .

(٢) آل ملك أو الملك سيف الدين الحاج النائب ، مملوك أصله من الأبلستين وهبه المنصور قلاوون لابنه علي ثم ترقى في الخدمة حتى أمِّر ثم كان في أيام الناصر من أهل المشورة وهو صاحب الجامع بالحسينية والدار المليحة بمشهد الحسين والمسجد الذي إلى جانبها ، تولى نيابة حماة ، ثم مصر ثم دمشق ، ثم اعتقل في الإسكندرية فاعتقل بها أواخر سنة ٧٤٦ أو في أوائل سنة ٧٤٧ .انتهى من الدرر الكامنة : ١/ ٤٨٩ .

الناصر بحيث أنه لم يكن عنده أحد في منزلته مرض مرضا أشرف فيه على الموت وعجز الأطباء فيه فقال بعضهم للسلطان : هذا قد عجزنا فيه من جهة الطب وأشار إلى أن يطلب له الدعاء من بعض الصالحين .

فقال له السلطان : هل تعرف أحدا بهذه المثابة ؟

قال : نعم سيدي الشيخ عبد الله المنوفي .

فقال : اذهب وقل له لعله يأتي .

فجاء إليه وطلب منه أن يذهب معه فامتنع فذكر ذلك للسلطان فقال له : إما أن يأتي وإلا ذهبت إليه .

فشق ذلك على سيدي الشيخ لأن في مجيء السلطان شهرة كثيرة .

فقال له الحكيم : يا سيدي يمكن اجتماعك به في السترة بأن تذهب فتوح[1] باب القلعة وتنزل عاجلا فأجاب سيدي الشيخ ، وذهب فلما رآه السلطان نزل له وعانقه وذكر له أمر مملوكه بكتمر ؛ فدعا له الشيخ ثم أراد الانصراف ؛ فدعا السلطان بطبق مملوء ذهبًا وقال له : خذه وفرقه على الفقراء ؛ فامتنع سيدي الشيخ وقال له : فرقه أنت أحسن ؛ ثم انصرف . فبلغني أن السلطان قال لمن حضر : إنما عانقته لأنظر قلبه وهل فيه اضطراب فلم أجد ذلك وليس عنده مبالاة .

وحصلت العافية لبكتمر من مرضه ذلك .

وسمعت المقر الأشرف شيخو[2] ~ تعالى ـ وكان أكبر أمير بمصر ـ

---

(١) كذا في النسختين .

(٢) شيخو الناصري أمير مملوكي تقدم (أي صار مقدم) ثم صار من أهل مشورة السلطان الناصر =

يقول : قال لي بعض أصحابي : ما تروح ؟ فقلت : لمن ؟

فقال : إلى سيدي الشيخ عبد الله المنوفي .

قال : فقلت : أخاف أن يفعل بي كما فعل بطغيتمر النجمي[١] ، لأنه لما راح إليه ، وقال له : يا سيدي أنا دوادار السلطان فهل لك حاجة ؟

قال : نعم ؛ قال : وما هي ؟

قال : أن لا تجيء لي مرة أخرى .

ثم ذهبت إليه أنا والأمير طاز [٢] طالبين من الله ﷻ أن يقبل علينا فرحب بنا وأكرمنا وسألناه عن حاجة فقال : ليس لي حاجة .

قال : ثم أرسلت له بعد ذلك فضة ففرقها وأخذ منها شيئا وقال : هذا لناس عندنا ؛ ففرحت بذلك الفرح ما لا أرى عليه مزيد .

قلت : والشيخ وإن أخذ فيده العالية ؛ لأنه إنما كان يأخذ ليفرق على المستحق والمعطي بعد ذلك ويرغب فيه .

= حسن بن محمد بن قلاوون ، وعظم شأنه ثم سجن بالإسكندرية ، ثم أفرج عنه السلطان الصالح سنة ٧٥٢هـ ، وعمل على إعادة الناصر حسن وخلع الصالح و صار مدبر المملكة ، وزادت عظمته ، وكثر دخله حتى قيل : إنه كان يدخل له من إقطاعاته وأملاكه ومستأجراته في كل يوم مائتا ألف ، وعمر الجامع والخانقاه بالصليبة التي تنسب له (الشيخونية) قد درس بها المصنف (خليل) فلما كان في ثامن شعبان سنة ٧٥٨هـ ، ضربه مملوك فما لبث أن توفي بعد ذلك بشهرين . انتهى باختصار وتصرف من الدرر ، لابن حجر ج٢ ، ص :٣٥٠وما بعدها .

(١) طغيتمر النجمي أحد المماليك الناصرية ترقى وعظم أمره حتى صار دويدارا ، ثم قتل سنة ٧٤٨ وكانت عنده مروءة وعصبية في الخير .انتهى من الدرر ، ج٢ ، ص :٣٨٦ .

(٢) طاز بن قطغاج أحد المماليك الذين تقدموا وترقوا بعد الناصر حتى كانت له نيابة حلب ثم قبض عليه وسمرت عيناه وسجن ، ثم أعيد بعد ذلك لدمشق مكرما إلى أن توفي سنة ٧٦٣هـ .

والناس إنما اختلفوا في الأخذ إذا أخذ لنفسه وذلك لأنهم اختلفوا في معنى قوله ﷺ : «**اليد العليا خير من السفلى**» [١] ، فقال الفقهاء : العليا هي المعطية ، وكذلك ورد مصرّحا به في بعض الأحاديث [٢] .

وقيل : العليا هي المنفقة . وقالت الصوفية : العليا هي يد الفقير لأنها تعطي الباقي .

وقال سيدي الشيخ الكبير العارف بالله تعالى الورع الزاهد الشيخ أبي محمد ابن أبي جمرة [٣] ~ تعالى : الظاهر أنه يفرق ؛ فإن كان الفقير هو السائل فيده السفلى ، وإن كان الغني هو السائل فيد الفقير هي العليا .

قال شيخو ~ تعالى : وكنت أحرص على حاجة له فلم تأتني عن لسانه إلا مرة بسبب حريري طلب بمظلمة فأزلتها عنه وفرحت بذلك .

وحكى العدل المرتضى عبد الله جمال الدين أخو زوجته أن الأمير المقر الأشرف منكلي بغا الفخري جاء لتربته ـ وكان الشيخ نازلا بها ـ ليزور سيدي الشيخ ؛ فجاء قرب الوقت الذي يأتي فيه سيدي الشيخ ، ثم أمر مماليكه أن

---

(١) حديث «اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول» مسلم (٢/ ٧١٧ ، رقم ١٠٣٣) ، وابن حبان (٨/ ١٤٨ ، رقم ٣٣٦١) عن ابن عمر {.

(٢) إشارة إلى حديث : «**ما أغناك الله فلا تسأل الناس شيئا فإن اليد العليا هى المنطية وإن اليد السفلى هى المنطاة وإن مال الله مسئول ومنطى**» وأنطى لغة في أعطى ، والحديث أخرجه الحاكم (٤/ ٣٦٣) وقال صحيح الإسناد ، والبيهقي (٤/ ١٩٨ ، رقم ٧٦٧٣) عن عروة بن محمد بن عطية السعدي عن أبيه عن جده .

(٣) أبو محمد ، عبد الله بن سعد بن أحمد بن أبي جمرة الأزدي ، الأندلسي ، المالكي ، نزيل القاهرة والمتوفى بها سنة ٦٩٥هـ ، إمام صوفي زاهد له شرح على البخاري واختصار سماه جمع النهاية في بداية الخير والغاية وشرحه في كتاب بهجة النفوس وكلها مطبوع .

ينصر فوا ؛ حتى يأتي الشيخ ولا يشعر ، وكذلك فعل بدوابه ؛ فأقبل الشيخ من بعيد ثم لم يأت على عادته بل ذهب صوب البرية .

قال : فقالت لي أختي : الشيخ علم بالأمير فلذلك لم يأت فاذهب إليه بمفتاح بيت المدرسة .

فذهبت به إليه فلحقني صهره ولامني على ذلك .

ثم جاء لسيدي الشيخ وسأله أن يذهب وقال له : يا سيدي والله ما هو باختياري ؛ وإنما ابتليت به ؛ ودخل عليه في المجيء معه ؛ فجاء وجاء الأمير وسلم عليه .

قال عبد الله المذكور : فسمعته يقول لما انفصل عنه : مالي وللأمراء ــ أو كلاما هذا معناه .

وسمعت القاضي العالم الفاضل تقي الدين ابن شاس يقول : أرسل الفخر كاتب المماليك السلطانية [1] ــ وكان ذا منزلة عند السلطان وشوكة ــ فضةً إلى العبد الفقير إلى الله تعالى قاضي المسلمين تقي الدين الإخنائي [2] نفع الله به وببركته ليفرقها قال : فأرسل معي فضة لأفرقها أنا وسيدي الشيخ ففرقناها

---

(١) هو محمد بن فضل الله القبطي فخر الدين ، كاتب المماليك السلطانية في عهد الناصر وناظر الجيش ، المتوفى ٧٣٢هـ ، كان نصرانيا فأسلم وحج مرارا وكان يكثر من الصدقات وبناء المساجد وتعلقت أمور المملكة به فكان يعارض الناصر كثيرا فيغضب منه ثم يرضى عليه وبعد وفاته تسلط الناصر على الناس فصادر وعاقب كثيرين . انتهى من الدرر ، ج٥ ، ص :٣٩٨وما بعدها .

(٢) محمد بن أبي بكر الإخنائي المالكي تقي الدين المتوفى سنة ٧٥٠هـ ، سمع من الحافظ شرف الدين الدمياطي ، ومن نصر بن سليمان بن عمر المنبجي وغيرهما ، وتقدم وتميز وولى قضاء المالكية وكان الناصر يحبه ويرجع إليه . انتهى من الدرر .

ثم أمرني القاضي أن أذهب إليه وأذكر له[1] ذلك ؛ وقلت له : إن بعضها فرق بحضرة الشيخ عبد الله المنوفي .

قال : فقال لي : أشتهي أن تأتيني به ؛ ورأيت منه الحرص على ذلك ؛ فقلت للشيخ .

فقال : إن شاء الله آتي لك اليوم الفلاني ؛ فانتظرته فلم يأت ؛ فجئت للشيخ وذكرت له ذلك فقال ~ تعالى : إن بقي يطلبني جئت .

قال : فلم يطلبه بعد ذلك . أو كلاما هذا معناه .

*****

(١) أي للفخر .

الفصل الثالث
في حلمه

أما حلمه فكان من شأنه أنه لا ينتقم لنفسه ولا ينتصر لها ، وكان محتملا للأذى من الأصحاب وغيرهم غير مقابل لهم والراحة وهذا هو أيسر الشأن عند أهل هذه الطريقة ، لأنهم يقولون : لا يثبت لمريد قدم حتى يكون فيه ثلاث حمل الأذى وترك الأذى وإيجاد الراحة لعباد الله .

وكان يسمع شتمه بأذنه ولا يتأثر لذلك ، ولهذا قيل : لو توجه العارف للانتقام ممن ظلمه قامت الرأفة والرحمة القائمان به يمنعانه من الانتصار ، وكيف ينتصر من الخلق ويقابلهم من يرى أن الله هو الفعال . ولقد أخبرني بعض أهل الخير أنه قال له : إن فلانًا يؤذيني .

فقال له : ما عليك منه ، ولا تلتفت له .

فقلت له : يا سيدي ويؤذيك ويضحك عليك .

فقال : أنا أفرح بذلك أو من أعطاني هذا ـ أو كلاما هذا معناه .

نعم كان من يؤذيه يظهر النقص في دينه ودنياه وذلك ليس من قبل الشيخ بل من الله تعالى .

***

قال سيدي الشيخ العارف بالله أبو العباس المرسي ~ ونفع به : لحوم الأولياء مسمومة .

وذلك لأن الأولياء على أربعة أقسام ، **الأول** : يدعون [٢٠/ أ] على من

ظلمهم ودعاؤهم جدير بالإجابة لقوله عليه الصلاة والسلام : «**واتق دعوة المظلوم إنه ليس بينها وبين الله حجاب**»[١] .

القسم الثاني : لا يصرحون بالدعاء ولكن يلجؤون إلى الله تعالى في النصرة وانتصار الله لهذا القسم شديد لقوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] .

وحُكي أن امرأةً لم يكن لها إلا دجاجة فسرقها سارق ، فردت أمرَه إلى الله تعالى ولم تدع عليه ، فلما ذبحها السارق ونتف ريشها نبت جميعُه بوجهه ، فسعى في إزالته فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى إلى حبر من أحبار بني إسرائيل ، فقال : لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة .

فأرسل إليها رجلا فقال : أين دجاجتك ؟

فقالت : سرقت .

فقال : لقد آذاك من سرقها .

قالت : قد فعل .ولم تدع عليه .

قال : قد فجعك في بيضها .

قالت : هو كذلك .

فما زال بها حتى أثار الغضب منها ، فدعت عليه ، فلما دعت عليه تساقط الريش من وجهه .

فقيل لذلك الحبر : من أين علمت هذا ؟

---

(١) أخرجه البيهقي عن ابن عباس في السنن الكبرى :ج٢/ ص٣٠ ح٢٣٠١ .

قال : لأنها لَمَّا لم تدعُ عليه انتصر الله لها ؛ فلما انتصرت لنفسها تساقط الريش .

القسم الثالث : لا يدعون ولا يلجؤون بل يفوضون الأمر إلى الله تعالى فهو المختار لهم .

القسم الرابع ، وهم الأعلون : إذا ظلموا رحموا من ظلمهم ، ولعل شيخنا [٢٠/ ب] ~ تعالى من هذا القسم ، نعم كان يحصل النقص لمن آذاه ولعل ذلك ليس من الشيخ بل من الله تعالى .

فمن ذلك ما حدثني به الشيخ العالم موسى شرف الدين المقري[١] نفع الله به قال : حكى لي صهره الشيخ الصالح عبد الرحمن أنه سافر مع سيدي الشيخ إلى الحجاز الشريف ، فلما وصلنا بدرًا رأينا شيخا من أهل البَرِّ ومعه ناس وهو يقول : أنتم يا أهل بدر مغفور لكم وإن فعلتم الكبائر ، لأن النبي ﷺ قال كذلك[٢] .

وأراد أن يأكل بذلك شيئًا من الدنيا ، فرآه سيدي الشيخ فقال له : يا سيدي الشيخ لم يُردْ النبي ﷺ إلا الصحابة التي[٣] قاتلوا معه ببدر ، فقال عليه الصلاة والسلام لهم ذلك لاطلاعه ﷺ على حسن سرائرهم ، وأنهم لا يصدر

---

(١) لم أقف على ترجمته ولم أتبين الصواب فيه هل هو مقري نسبة للمقرة قرية أم المقرئ ؟

(٢) إشارة إلى قصة حاطب بن أبي بلتعة ﷺ ومراسلته لأهل مكة قبل الفتح وفيه أن عمر أراد أن يضرب عنقه فقال له رسول الله ﷺ : «**وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» أخرجه البخاري (٣/ ١٠٩٥ ، رقم ٢٨٤٥) ، ومسلم (٤/ ١٩٤١ ، رقم ٢٤٩٤) ، وأبو داود (٣/ ٤٧ ، رقم ٢٦٥٠) والترمذي (٥/ ٤٠٩ رقم ٣٣٠٥) من حديث علي ﷺ وروي عن ابن عباس ، وأبي هريرة وجابر ﷺ .

(٣) كذا في النسختين .

منهم مكروه .

قال : فضرب سيدي الشيخ بعضُ تلامذة ذلك الشيخ ؛ فمن ذلك الحين حصل للشيخ وجع في بطنه ، والضارب في جنبيه ، وأشرفا على الهلاك ، ثم لا برح عنهم الألم إلى أن بالغا في طلب سيدي الشيخ واستغفرا له وتابا ، فدعا لهما سيدي الشيخ أو وضع يده عليهما فبرئا . أو كما قال .

***

ومن ذلك ما حدثني به الشيخ الصالح نور الدين المليجي أنه مر يوما بسيدي الشيخ فوجده جالسًا عند باب استادارين أخي بشتاك ~ [٢١/ أ] تعالى قال : وكانت لي به بعض معرفة قال : وكان لنهضته يتحدث للأمير بشتاك[1] وهو عندهم معظم ، قال : فقلت لسيدي الشيخ : ما جلوسك هنا ؟

فقال : لي حاجة . فقلت له : قلها لي ، وطلبت منه ذلك .

فقال : هذه المرأة معها أولاد وقد حبس هذا زوجها ، والقصد أن يفكه ، وإذا طلب جئت به .

فذهبت إليه وقلت : هذا الشيخ عبد الله يقول لك : كيت وكيت ، ومصلحتك أن تقضي له ما ذكر ، قال : فأخذ في سب الشيخ وشتمه ؛ فرجعت إليه ووددت أني لا كنت تكلمت معه بشيء لأني أسمعته ما يكره .

---

(١) بشتاك الناصري ، نسبة للناصر محمد بن قلاوون ، وهو الذي اشتراه ، وعهد لقوصون بتربيته ، وقدمه بعد بكتمر فأعطاه داره وزوجته ، وكانت له الشرقية إقطاعا خالصا بعد بكتمر وعظم شأنه عند الناصر حتى كان يسميه بالأمير ، وقد عرف بشدة البأس والبذخ والولع بالنساء ، وتغير عليه ابن الناصر بعد وفاة أبيه ، فنفي وقتل سنة ٧٤٢هـ . من الدرر الكامنة لابن حجر (٢/ ١٢) باختصار وتصرف .

فقيل له : قد فعل قبل هذا بالشيخ أعظم من هذا .

فذهبت وتركت الشيخ جالسًا فعن قليل ضرب ذلك الضرب الشديد وأخذ جميع ماله ، ورأيته يشحت ويسأل ولم يزل كذلك إلى أن مات .

وحكى العدل الرضي جعفر وغيره أن والده وكان من الصلحاء الأخيار ومن جملة محبي الشيخ سافر ليأتي لسيدي الشيخ بقمح من شابور كان سيدي الشيخ اشتراه لتأكله الفقراء ؛ قال : وكنت مع والدي ؛ فأشرف المركب على الغرق ومالت المركب للنزول فقام والدي وقال : يا سيدي عبد الله ، ثم جلس ضاحكًا وارتفع الغرق وقال : رأيت سيدي الشيخ جلس على الجانب المرتفع فاستقامت المركب ، ثم لما وصل القمح وشاله التراسون سرق بعضهم منه وغمز [٢١/ أ] عليه بعضهم فجاء والدي للشيخ وذكر له ذلك ، فقال لهم الشيخ : هاتوا القمح الذي أخذتوه ، فأنكروا وقالوا : ما أخذنا شيئًا .

فتركهم سيدي الشيخ فعن قليل جاءوا وقالوا له : قد ماتت حميرنا .

وطلبوا من والدي أن يستعطف قلب الشيخ فسكت والدي ثم جاؤوا فقالوا : قد مات جميع الحمير أو أكثرهم ، فذكر والدي للشيخ فقال : لم لا جاؤوا بالقمح أولًا ؟!

*****

الفصل الرابع
في صبره وتواضعه

فأقول : كان ﷺ من الثابتين في مركز الصبر وكان يصبر على أذية أصحابه له وعلى الألم الشديد .

وكانت به أمراض يكتمها مع كونها تؤلم الألم البالغ ؛ فمن ذلك أنه كان به قطار البول ، وكان بين كتفيه جمرة تمصل عليه ، ويحصل منها ألم شديد ، وكانت توجعه وجعا شديدًا وهو لا يظهر عليه شيء من ذلك ، وأكثر الأصحاب لا تعلم بذلك .

وحكى القاضي الأجل محمد شهاب الدين ابن الأعز[1] وفقه الله تعالى لما يرضيه وهو من جملة أصحاب الشيخ ومحبيه قال : انقطع الشيخ مرة فسألت عنه فقيل متضعف ؛ فذهبت إليه وسألته عما به فقال : أنا طيب وإنما بي دميمل .

قال : فعلمت أنه عظيم ؛ لكون الشيخ ~ تعالى لا ينقطع إلا لأمر شديد .

قال : قلت لسيدي الشيخ : ما نأتي لك بمن ينظره ؟

---

(١) القاضي شهاب الدين ابن بنت الأعز ، محمد بن أحمد بن عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلائي ، من بيت مشهور بالعلم ، روى البردة بسماعه من ناظمها ، كان حسن الشكل والملبس ظاهر الحشمة يعد من أعيان البلد ، ولي نظر بيت المال والأحباس وغيرهما ومات في ثامن عشر شهر ربيع الأول سنة ٧٦٢ هـ . انتهى من الدرر ، لابن حجر ، ج ٥ ، ص٦٣ .

فأشار إلى أنه بمحل البول ، قال : فسكت عنه .

ثم جئت له بعد ذلك وسألته عن حاله فأظهر البشر ، ثم قلت له على أن [٢٢/ أ] آتي له بمن ينظره فقال ~ : تعين .

قال فجئت له برجل جيد ، ثم أمرته أن ينظر ما بالشيخ ؛ فقال : أعطوني شقفة فأعطيته قدرة صغيرة فبطه وأخرج منه مقدار نصفها مدة ، ثم قال لي لما جئت بعد الفراغ وخرجنا من عند الشيخ : عجبت لسيدي الشيخ كيف كان يستقر فإن الذي به غالب الناس لا يقدرون أن يحملوا بعضه ؟!

ثم قال : أخشى أن يحصل للشيخ ناسور من هذا .

قال : فعن قليل ذكر أنه فاق وعاد إلى ما كان .

وكان يمرض المرض الشديد فلا يتداوى ثقة بالله تعالى ولقوله ﷺ : «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب وهم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون**»[(١)] .

وأما تواضعه فكان لا يوارى ، يتواضع للصغير والكبير ، والشريف والوضيع ، والمرأة والرجل ، ولا يدعي أبدًا دعوى معترفًا بالتقصير ويقول للطلبة : ما أنا شيخ وإنما جلسنا نتذاكر ؛ ويقول : جلست لأصحح على المبتدئين .

ولم يركب دابة ما دام بمصر والقاهرة ، مع كونه يمشي الأماكن البعيدة في الحر المفرط ، ويقول : شكر العافية على الأقدام .

---

(١) أخرجه البخارى عن ابن عباس : (٥/ ٢٣٧٥ ، رقم ٦١٠٧) .

قال سيدي محمد ولد سيدي الشيخ : سألت والدي يوما وقد ذكر أنه كان بمكان بعيد : هل كنت راكبا ؟

فقال : يا بني حمار يركب حمارًا ؟!

وكان يكنس المرحاض [٢٢/ ب] بيده ويتكتم في ذلك ، أخبرني بذلك جماعة وسمعته يقول : لولا الناس لملأت الأزيار [١] من الصهريج للطلبة .

وحدثني غير واحد والشيخ القابسي [٢] ـ وهو من جملة أصحاب سيدي الشيخ قال : جاء الشيخ العالم الفاضل علاء الدين القونوي [٣] شيخ خانقاة سعيد السعداء لسيدي الشيخ يسلم عليه ثم قال له : قصدي أن تكونوا من جملة المنزلين بهذا المكان فإنه مبارك ، وفيه ناس مباركون يحصل لهم البركة ، ولكم بهم .أو كلاما هذا معناه ؛ فقال سيدي الشيخ : أنا لا أصلح لهذا .

فألح عليه فقال له سيدي الشيخ : هذا المكان من شرط من تنزل به أن يكون صوفيًا وأنا والله لست صوفيا . ولم يفعل .

ومن تواضعه أنه كان يحمل القفة على رأسه ، والزبدية في يده ، وربما شال

---

(١) في النسخة الأخرى (الآبار) .

(٢) لم أهتد إليه .

(٣) على بن إسماعيل بن يوسف القونوي علاء الدين الشافعى المتوفى سنة ٧٢٩هـ ولد ونشأ بقونية (تقع في تركيا) وإليها نسب ، ثم قدم دمشق فدرس بها ثم القاهرة سمع من إبراهيم بن عنبر الماردينى وأحمد بن عبد الواحد الزملكانى ، وابن الصواف وابن دقيق العيد وغيرهم ، وتقدم علاء الدين المذكور فى معرفة التفسير والفقه والأصول والتصوف وتولى مشيخة خانقاه سعيد السعداء وولي قضاء دمشق ، ونقل عن ابن دقيق العيد أنه قال : يطلق على القونوي اسم الفاضل استحقاقا . انتهى بتصرف واختصار من الدرر الكامنة ، لابن حجر :٤/ ٣٠ ، وطبقات الشافعية ، للسبكي : ١٠/ ١٣٢ .

نعله أيضًا بيده ، ورآه على تلك الحالة غير واحد ، وهو مع ذلك غير متأثر مشتغل بتلاوة الكتاب العزيز .

*****

الفصل الخامس
في فقره مع نفقته النفقة الكثيرة

فأقول :

كان ﷺ في آخر عمره وليس له معلوم الدرهم الفرد ، وكان مع ذلك ينفق ما يعجز الملوك عن مثله ؛ فكان يطعم في كل ليلة خمسين أو ستين ؛ وفي بعض الليالي أكثر من سبعين ؛ والقمح يساوي كل أردب حينئذ ستين درهمًا ، والناس في غلاء ، ويفرق مع ذلك خبزا كثيرا بالمدارس ، ويرسل مع جماعة كثيرة [٢٣/ أ] فضة ليشترى بها خبز ، ويفرق في الأزقة ؛ ومع ذلك ينفق في الشهر الواحد على جميع الفقراء المترددين إليه ثلاث نفقات أو أكثر وربما يزيدون على المائتين شخصا ، ويعطي لمن يرد عليه من خارج بلا حصر ويرسل الدراهم مع أصحابه ليفرق في البلاد ويشتري القمح الكثير ، والخام والمآزر للفقراء .

***

وكانت أضحيته سنة موته ثماني بقرات واثني عشر خروفا ، غير ما أرسل للفقراء من المذبوح .

هذا ولم يكن مشتهرا بزاوية ولا أن عنده فقراء ، بل كان يتكتم في حاله ؛ ومن جملة تكتمه أنه سكن آخر عمره بتربة الأمير منكلي بغا الفخري لأجل أن أخته وصهره كانا بها .

وكان يقبل من بعض الناس بعض الشيء ولكن لا يقارب ذلك عشر ما كان ينفقه .

وكان ﷺ بجانبه في المدرسة كوة وكان يخرج منها ما كان يعجز الملوك عنه .

وما كان يشك من رأى حاله أنه ينفق من الغيب وحكى لي غير واحد أنه جاور بمكة سنة غلاء فكان يخرج دائما من عمامته فضة كثيرة مرصوصة ملء ما بين سبابته وإبهامه ويعطيها لمن يشتري بها خبزا وتمرًا ليفرق على الفقراء .

***

وحكى لي الفقيه الصالح أحمد القلعاوي ~ تعالى أن الشيخ خرج يومًا من الخلاء ويده مبلولة فأعطاه ثلاثة دراهم من بين أصابعه .

***

وحكى لي الشيخ الصالح محمد ابن الشيخ الصالح [٢٣/ ب] عبد الرحمن وابن أخته أنه حل يومًا عمامته بالتربة ونفضها بحضرة الجماعة ثم جاءه إنسان فأعطاه فضة من عمامته بعد نفضها ، وكذلك حكى القاضي الأجل العالم تاج الدين المعروف بابن شاهد الجمالي[1] أنه شاهد الشيخ يوما بالمدرسة حل عمامته ونفضها ثم أعطى الفضة منها .

وحكى لي بعض من أثق إليه عن بعض الطلبة الأخيار أنه قال : فرشت يومًا للشيخ فروة ولم يكن تحتها شيء ، ثم جلس الشيخ ودفع لشخص فضة من تحتها .

---

(١) محمد بن عبد الله بن عبد الله المصري ، القاضي المالكي تاج الدين ، عرف بابن الشاهد الجمالي المتوفى سنة ٧٧٢هـ ، كان فقيها مالكي المذهب تولى شهادة ديوان شيخو فعظم في زمنه وولى بعده افتاء دار العدل وشهادة الجيش ووكالة الخاص وخرج مع الحجاج في رجب فمات في رمضان بعقبة أيلة . انتهى من الدرر : ٥/ ٢٣٥ .

وحكى الشيخ الصالح العالم سليمان المقرئ نفع الله به وغير واحد عن عبد الرحمن صهره قال : سافرت مع الشيخ للحجاز الشريف فكان سيدي الشيخ ينفق النفقة الكثيرة التي لا تقتضي ظاهر حالنا قال عبد الرحمن : فلما وصلنا إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام لم أجد الدرهم الفرد قد بقي معنا فحصل لي القلق وقلت لسيدي الشيخ ؛ فقال لي : وإذا فرغت هو ما يرضَى بك أن تموت هنا تعالى خذ ؛ فأعطاني ما فيه الكفاية وزيادة ولم يكن مع الشيخ قبل ذلك شيء ـ أو كما قال .

*****